



REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE
MINISTRE DE L'ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE
Université Mohamed Boudiaf de M'Sila
Faculté des Lettres et des Langues
En collaboration avec
le Laboratoire des Études Linguistiques Théoriques et Pratiques



Ouvrage collectif international

La poésie populaire algérienne : enjeux identitaires, socio-historiques et mémoriels.

Sous la direction de

Dre Abla HOUICHI
Pre Ouahiba ZELLAGUI
Pre Catherine GRAVET
Pr Abdelkader KHELIFI



Republique Algerienne Democratique Et Populaire
Ministere De L'enseignement Superieur
Et De La Recherchescientifique



Université Mohamed Boudiaf de M'Sila Faculté des Lettres et des Langues

En collaboration avec le Laboratoire des Études Linguistiques
Théoriques et Pratiques

La poésie populaire algérienne :

Enjeux identitaires, socio-historiques et mémoriels.

Ouvrage collectif international

Sous la direction de

Dre Abla HOUICHI, Pre Ouahiba ZELAGUI, Pre Catherine
GRAVET et Pr Abdelkader KHELIFI

Sommaire

N°	Titre	page
	Préface	
	Introduction	08-09
Première partie : La poésie populaire algérienne : de la poétique à la critique sociale		
01	L’oralité poétique du chant kabyle : une véritable «archive vivante» et un pilier de la conscience kabyle Abla HOUICHI Université Mohamed Boudiaf de M’Sila, Algérie Catherine GRAVET Université de Monts, Belgique	11-37
02	Discours poétique et discours social dans la poésie populaire d’Abderrahmane Mejdoub KHELFAOUI Benaoumeur Université Kasdi Merbah Ouargla, Algérie	38-49
03	L’influence du Coran sur la poésie populaire algérienne : un regard sur l’intertextualité Mhamed BOUDIA Université de Saida : Dr. Mouley Tahar, Algérie Souad BOUHADDJAR Université de Saida : Dr. Mouley Tahar, Algérie	50-61
04	Analyse linguistique et discursive d’un chant populaire oral algérien Pr Abderrazek ZEBIRI Université Mohamed Boudiaf de M’sila, Algérie	62-72
05	Language and Cultural Identity in the Digital Space: From Folk Poetry to New Representations of Belonging – A Sociological Analytical Study BOUZNEB Samira Université Mohamed Boudiaf de M’Sila, Algérie CHETOUANI Noura Université Mohamed Boudiaf de M’Sila, Algérie	73-96
Deuxième partie : La poésie populaire algérienne : Identité, Histoire et mémoire collective		
06	La poésie : Le chant d’un cri dans le mémorial historique GAOUDI Fella Université Mohamed Boudiaf de M’Sila, Algérie ZELLAGUI Wahiba Université Mohamed Boudiaf de M’Sila, Algérie	98-113

07	Preserving Algeria's Oral Legacy: Challenges and Strategies for Popular Poetry ZIANE Fouzia University Mohamed Boudiaf of M'sila, Algérie	114-130
08	Anthologies de Poésies Traditionnelles Maghrébines dans les Romans d'Assia Djebbar et Yasmina Khadra KHARKHACHE Souhila Université Mohamed Boudiaf de M'Sila, Algérie SAADAOUI Saloua Université Mohamed Boudiaf de M'Sila, Algérie	131-151
09	الشعر الشعبي في ذاكرة المقاومة الجزائرية 1830 – 1954م الحضور والأصداء عبد القادر خليف جامعة محمد بوضياف – المسيلة الجزائر	152-166
10	نماذج من الشعر الشعبي بالقبائلية عن ثورة 1871 عبد النور أيت بعزیز جامعة البليدة 2- لونيبي علي الجزائر	167-190
Troisième partie : Elmelhoun, l'art poético-musical algérien		
11	La mise en mots des urbanités socio-linguistiques dans la poésie populaire algérienne (Elmelhûn) SOUAMES Amira Université Mohamed Boudiaf de M'sila, Algérie	192-203
12	De la théâtralité dans la poésie populaire (melhûn) : Mestfa Ben Brahim et l'expression de la tradition populaire LAGUER Hanane Institut National des Langues et Civilisations Orientales, (INALCO), Paris	204-220
13	Hiziya, le corps dans le poème : pour une représentation de l'absence et un lyrisme de la perte ZEBIRI Abdelkrim Université Mohamed Boudiaf de M'sila, (Algérie)	221-240
14	نسقية البناء الحكائي في قصيدة "أففا إينوفا" أو تهويدة "يا أبي" أنموذج تحليل عقاب بلخير جامعة محمد بوضياف المسيلة الجزائر	241-258
15	جماليات الصورة الفنية في الشعر الملحون الجزائري-شعر المنفى أنموذجاً فتحي بوخالفة جامعة محمد بوضياف المسيلة الجزائر	259-292
16	القضايا الدينية والأدبية في الشعر الصوفي الشعبي من خلال ديوان الشيخ محمد الريغي شبيرة حكيمة بوشلاق جامعة محمد بوضياف المسيلة الجزائر	293-308

الشعر الشعبي في ذاكرة المقاومة الجزائرية 1830 – 1954م

الحضور والأصداء

Popular Poetry in the Memory of the Algerian Resistance (1830–1954) :

Presence and Echoes

أ.د/ عبد القادر خليف

جامعة محمد بوضياف – المسيلة

abdelkader.khelifi@univ-msila.dz

ملخص/

لقد أبدع الشعر الشعبي في رسم صورة حية عن تجربة المقاومة الجزائرية بكافة تجلياتها في تصديها للظاهرة الكولونيالية على امتداد يتجاوز القرن وربع قرن قبل أن تتفجر ثورة أول نوفمبر 1954م، التي دفعت الاحتلال إلى مزيلة التاريخ بعد تضحيات جسام، قدمها الجزائريون على مذبح الحرية.

ترصد هذه الورقة تلك اللوحات التي عرضها هذا اللون الأدبي بأفواه المدّاحين والقوّالين في ميادين وساحات التواصل الاجتماعي، والتي شرّحت السياسات وبسطت الانعكاسات، قد كان لها الأثر الإيجابي على النفسيات والتحركات، مما دفع بالسلطة الفرنسية وأعوانها إلى استشعار خطورتها وتلّمس مدى تأثيرها، ف راحت تتصدى بالقمع والترهيب لأصحابها، وبمحاولة دراستها واستخلاص العبر من مضامينها.

الكلمات المفتاحية: المقاومة – الشعر الشعبي – الجزائر – المداحون – الاحتلال الفرنسي – الملحون – الذاكرة.

Abstract.

Popular poetry excelled in portraying a vivid image of the Algerian resistance experience in all its manifestations in confronting the colonial phenomenon over more than a century and a quarter, before the outbreak of the November 1, 1954 Revolution, which pushed the occupiers into the dustbin of history after the enormous sacrifices made by Algerians on the altar of freedom.

This paper examines the scenes depicted by this literary form through the mouths of praise singers and storytellers in social communication arenas and spaces, which dissected policies and outlined their repercussions. These depictions had a positive impact on

mentalities and mobilizations, prompting the French authorities and their allies to perceive their danger and assess their influence, leading them to confront their creators through repression and intimidation, as well as by attempting to study them and draw lessons from their content.

Keywords: Resistance – Popular Poetry – Algeria – *Meddahīn* – French Occupation – *Malhūn* – Memory.

مقدمة.

لقد لعب الأدب الشعبي بألوانه المتعددة وفي طليعته الشعر دورا معتبرا في إبراز الحالة النفسية والتعبير عن الواقع الاجتماعي، وشكّل علامة على الرفض والمواجهة زمن الكولونيالية بمختلف مراحل تمددها عبر الفضاء الوطني، لاسيما وهي تجسد كل صور الإجرام في استباحة همجية لكل الأعراف والقوانين الإنسانية، فكان إذن هذا الشكل الأدبي رمزا للتصدي والمواجهة، انبرى له عددا من الشعراء الشعبيين والمدّاحين والقوّالين، الذين جابوا الأسواق وحضروا التجمعات العائلية والمناسبات الدينية وغيرها، فمثّلوا لسانا معبرا عن أهات وآلام وتطلعات بني جلدتهم، فاستطاعوا تقديم تصورات فنية لتلك الحالة المجتمعية التواقّة إلى الحرية والكرامة ورد العدوان، بما يعكس مخزون الذاكرة الجماهيرية الراض دوما لمنطق العبودية والسيطرة تحت أي ظرف، ومهما كانت جسامة التضحيات.

والحقيقة، أن مضامين ما أنتجته قرائح الشعراء، ولهجت به أفواه القوّالين والمدّاحين يمثل سجلا حيّا للوقائع التاريخية ومظاهر الحياة الاجتماعية، وبعثا لروح البطولة والشجاعة حتى ولو سبحت أحيانا في عالم المبالغة والتهويل.

ومما لاشك فيه، أن تناول الشعر الشعبي والغوص في مضامينه يعتبر عملا أصيلا مرتبطا بتراثنا الثقافي، الذي يمثل جانبا هاما من هويتنا وشخصيتنا، ويعدّ دعامة لتأمين بقائها واستمرارية وجودها وسط تحديات لا حصر لها.

فما مفهوم الشعر الشعبي ؟ وفي أيّ سياق تاريخي ظهر بالجزائر؟ وفيم تبرز الأدوار التي مارسها هذا اللون في إطار المقاومة الوطنية؟ وما هي الأصدااء التي خلّفها ؟

الشعر الشعبي: مقارنة في المفهوم.

يذهب المشتغلون بالحقل الأدبي إلى أن بداية الاهتمام بالفنون الشعبية يرجع إلى القرن التاسع عشر الميلادي، حينما ظهر مصطلح فولكلور لأول مرة في مجلة علمية بريطانية عام 1846م، وهو المصطلح الذي عرفته دائرة المعارف الفرنسية بأنه يعني علم الأدب والتقاليد والآداب الشعبية.

وإذا كان ضبط المعنى يبدو حديثا نسبيا، فإن الاهتمام بما تحويه الفنون الشعبية يعد مسألة قديمة قدم الذوق الإنساني نفسه، فقد عبرت الكلمة عن وجدان الجماعات البشرية منذ فجر التاريخ وقبل أن يعرف الفرد الكتابة والتدوين.¹

والواقع، أن ضبط مفهوم دقيق للشعر الشعبي والوقوف على التسميات المختلفة التي توشح بها، والتأريخ لبداءيات ظهوره في البلاد ليست من الأمور المتاحة بيسر وسهولة، فقد تعددت التعريفات التي ساقها الدارسون والكتاب لهذا اللون الفني، وتباينت منطلقاتهم، ولما كانت هذه المسائل خارج أهداف هذه الورقة، فإننا سنقف على ما اشتهر من تعاريف نعتقد أنها تتقاطع مع المفهوم الشائع.

يطلق الشعر الشعبي على كل كلام منظوم من بيئة شعبية بلهجة عامية، تضمنت نصوصه التعبير عن وجدان الشعب وأمانيه، متوارثا جيلا عن جيل، عن طريق المشافهة،² ويذهب الباحث التلي بن الشيخ إلى ترجيح الاعتقاد بأن تسمية الشعر الشعبي تتطابق مع مفهوم الطبقات الشعبية لهذا اللون من التعبير، أكثر من غيره من المصطلحات.³

ورأى أحدهم أن الشاعر الشعبي هو بمثابة الطاقة المحركة لبعث الحيوية في النفوس، فهو وإن كان لا يخوض المعارك بسيفه، لكنه يتولى تسجيل الوقائع بأمانة، وأن له القدرة على خلق عناصر النصر من ركام الجراح والنكبات.⁴

1 - محمد البشير الإبراهيمي، التراث الشعبي والشعر الملحون في الجزائر، تحقيق عثمان سعدي، ط1، شركة دار الأمة، الجزائر 2010، ص 05.

2 - نصيرة ريلي، "الشعر الشعبي الجزائري النشأة والمصطلح"، مجلة أبولوس، المجلد 09، العدد 02، كلية الآداب واللغات جامعة سوق أهراس، جويلية 2022، ص 336.

3 - المرجع نفسه، ص 336.

4 - نور الدين بن قدور، "النضال والمقاومة في الشعر الشعبي الجزائري: الشاعر محمد بلخير أنموذجا"، مجلة إنسانيات معاصرة المجلد 01، العدد 02، المركز الجامعي صالح أحمد، النعامة، سبتمبر 2022، ص 87.

يعتقد البعض أن القصيدة الشعبية الجزائرية تقترب في بنائها الفني من الخطبة أو الرسالة ولاسيما في افتتاحيتها، فهي مزيج بين الشعر والنثر، أخذت من الشعر إيقاعه وحافظت على القافية وأخذت من النثر خطابيته ومقدماته.¹

ومن الملاحظات التي انتهى إليها بعض الدّارسين، أن الشعر الشعبي بالجزائر، قد تميّز بطابعه الإقليمي، بحيث لم يعالج قضايا احتلال البلاد بنظرة شاملة، وإنما وقع التركيز فيه على حوادث وتطورات منطقة بعينها، في انتصارها أو انكسارها²، ولعل من بين ما سجلناه أيضا ونحن نعد هذه الورقة غياب العنصر النسوي، حيث لم تقع بين أيدينا أشعارا لنساء جزائريات، ولم تخلد الذاكرة الأدبية سوى اسم فاطمة شريف³، ولسنا ندري هل قدمت المرأة الجزائرية مساهمات في هذا الباب وضاعت كما ضاع الكثير من التراث، أم أن خصوصية المجتمع، وطبيعته المحافظة عموما لم تسمح ببروز شاعرات شعبيات، وهي مسألة لا نستطيع الجزم حولها في غياب الوثائق والشواهد.

الشعراء الشعبيون والواقع الاستعماري: تصورات ومواقف.

لأشك أن المتصفح لمحتوى الشعر الشعبي يقف على تعدد مضامينه ووظائفه التي أداها وفي طبيعتها الدور السياسي، بتغنيه بقيم المجتمع وعناصر هويته، وما أظهره من مواقف مقاومة للاحتلال برفع راية الجهاد، وتمجيد البطولات، ورفع مقام المجاهدين والشهداء، أو في ما كشف عنه من إدراك لأبعاد المواجهة، حيث لم يتوان في الخوض في المسائل المرتبطة بسياسات الاحتلال الترهيبية والترغيبية، وما تركته من آثار نفسية ومادية، ومن ذلك، التحولات التي طاولت المجتمع، وقضية الهجرة، وظاهرة التجنيس، ولما كانت مساحة هذه الورقة لا تمكننا من رصد وعرض كل ما تم جمعه من إنتاج الشعراء، فقد انتخبنا نماذج منه.

ففيما يخص التعاطي مع حركة المقاومة الشعبية في شكلها المسلح، انطلاقا من بداية الاحتلال حتى مطلع القرن العشرين، كانت الشواهد حاضرة، إذ تشير الكتابات⁴ إلى أن الشاعر عبد القادر

¹ - رشيدة سعدوني، "أشعار سي محند أو محند: الشاعر الجوّال"، جريدة دنيا الوطن الإلكترونية، 2014/03/25، متاح على الموقع:

<https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2014/03/25/324486.html>

² - تسعديت قاسم و غانية فيلالي، الاستشراف الفرنسي والشعر الشعبي الجزائري: ديوان سونك أنموذج، مذكرة ماستر في الدراسات الأدبية، تخصص أدب عالمي ومقارن، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مولود معمري، تيزي وزو الجزائر، 2018-2019، ص 50.

³ - لم نعثر لها على ترجمة أو أية معطيات تحدد الفترة الزمنية التي عاشت فيها، سوى أنها عاصرت الاحتلال الفرنسي.

⁴ - عرفت في الدراسات التي تناولت الشعر الشعبي بمرثية الجزائر، وكان عنوانها دخول الفرنسيين، وضمت مائة بيت، ويقول عنها سعد الله: "إن قصيدة رثاء الجزائر للشيوخ عبد القادر الوهراني وثيقة تاريخية هامة، وهي ليست مجرد وصف للأحداث التي جرت نتيجة الاحتلال، ولكنها مفعمة بالمشاعر الإنسانية العميقة، فالرجل قد انطلق من غيرته على الوطن والدين والتراث والقيمة التاريخية لمدينته وآثارها، ولذلك، يجب أن تدرس هذه الوثيقة في المدارس والجامعات، وهي دليل على أن الأدب الشعبي الصادق يظل خالدا رغم مرور الزمان". ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 8، 1954-1830، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 338.

الوهراني قد عالج في قصائده قضية التوسع الفرنسي في عامه الأول، ويعزو إليها البعض دورها الكبير في التحريض على المواجهة خلال منتصف القرن التاسع عشر، حيث كانت تنشد في الأسواق لاستنهاض الهمم، ومحو عار الهزيمة التي لحقت بسكان العاصمة غداة اجتياحها من قبل حجاجل الفرنسيين¹، ومما جادت به قريحته:

الأيام يا خاوتي تتبدل ساعاتها ... والدهر ينقلب ويولّي في الحين

بعد كان سنجاق البهجة ووجاقها ... الأجناس تخافها في البر وبحرين

الفرانسييس حرك لها وخذاها ... لاهي مياة مركب لاهي ميتين

من درى على الجزائر وعلى تحصاتها ... وعلى وجاقها نزلت فيه العين.²

ومع توسع رحي المواجهة مع الغازي الفرنسي شرقا وغربا، أخذت انتاجات الشعراء تتدفق من كل حذب وصوب، وهذا الحاج عدّة بن علي الشريف التحلاقي يصور ما وقع في معركة النطاح الأولى³ قرب وهران خلال عمليات المستعمر بغرض احتلال الغرب الجزائري، وهي المواجهة التي كان النصر فيها حليفا للمقاومة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر، ومما حمله هذا التصوير:

ياسايل راني نعظم ... في ذا الجيش ألي تلايم

امشا للبهجة يزاد ... وعمل خصايل ضارب عداي الرحمان

ستر الله عليه دايم ... ذا النجع الغربي أخباره في البلدان

سيدي محي الدين دبر ... في ذا الراي وجا امزير

في سيق نزل بالحاضر ... هو والمبروك الأفحال بن زيان

من ثم ركبزا العصر ... الأقطاب اجتمعوا اتفقوا في ديوان

خليفة للجهاد لبّا ... واجمع قومان العربا

¹ - محمد الأمين، " الشعر الشعبي الجزائري أصوله ووحدة مصادره"، ضمن كتاب: مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، تيارت، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2006، ص 88.
² - جلول يلس و أمقران الحفناوي، المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، طبعة خاصة، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص ص 36-37.
³ - وقعت المعركة بتاريخ 29 ماي 1832 وكانت بإشراف الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر، وهذا الأخير شارك في القيادة المباشرة للمعارك، التي دارت رحاها بضواحي مدينة وهران، وأسفرت عن هزيمة الجيش الفرنسي.

قالهم ما كان هربا ... من يهدر في الغيب واك اليوم يبان

للميمر نعطوا امكبا ... وآلي مات امانزله جنت رضوان.¹

ويصف بسالة جيش المجاهدين في معركة رأس العين التي دارت رحالها خلال الأسبوع الأول من شهر ماي 1832م بالقول:

يا سيلني نعيد للشكر هديا ... للجيش لي مشرب للكفر الامرار²

وفي قصيدة له عنوانها: "فرج يا خالقي ودبر"، تظهر اللمسة الدينية في توجيهه الدعوة إلى الجهاد وإعلاء راية التوحيد، وترغيب المجاهدين بالجائزة المنتظرة عند الخالق.

يربح في السما على صوت الأذان احييوا دين النبي الطاهر

من يبغي شي قصور في جنة رضوان يتنعم في الجنان الأخضر

حورات العين يتلقوه في الجنان يشفع في قرابته ويحرر³

لقد كان لكل حركة مقاومة وثورة شعبية شاعرها يتغنى بأبطالها ويسجل مآثرها، وكانت ثورة الزعاطشة 1849م من أبرز الثورات بعد نهاية مقاومة الأمير وهي تمثل الاستمرارية الدفاعية، وبعد استماتة كبيرة وروح مواجهة بطولية تمكن الفرنسيون من دخول الواحة وتخريبها كلية، وقد نظم الشاعر الشعبي محمد بن عمر وهو من واحة ليشانة المجاورة قصيدة في مدح الشيخ بوزيان قبل نهاية المعركة وفي وقت لاحق، وبعد أن قامت السلطة الاستعمارية بقطع رأس هذا المقاوم وتعليقه مع رأي رفيقه الحاج موسى الدرقاوي ورأس ابنه في مدخل المعسكر، أنشد هذا الشاعر في حفل قروي أقيم عام 1851م القصيدة السالفة فاعتقلته الإدارة الفرنسية، ووضعت في السجن بمدينة بسكرة، حيث اتهم بتهديد الأمن العام، مما يدل على تأثير الشعر وصدى ملحمة الزعاطشة، وتخوف الفرنسيين لاسيما وأن هذه الفترة أي أوائل الخمسينيات، قد شهدت تفجر ثورة الشريف محمد بن عبد الله في الصحراء الشرقية بنواحي ورقلة وتقرت ووادي سوف والتي وصلت آثارها إلى الزيبان.⁴

¹ - الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت 1990، ص ص 96-97.

² - المصدر نفسه، ص 98.

³ - جلول يلس و أمقران الحفناوي، المرجع السابق، ص12.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 324.

وبعد فقدان الشاعر الشعبي في الوسط المجتمعي لاسيما إذا كان متصفا بخصال الفارس والأديب جامعا بين الكلمة والسيف مسألة مؤثرة، تترك جرحا غائرا في نفسية محبيه ومناصريه، وقد صور لنا أحد القادة الفرنسيين مشهدا لهذا التلاحم في منطقة قريبة من العاصمة، فكتب: "لقد كانت وفاة فارس واحد من بني حجوط، وهو الشاعر بوثلجة خسارة كبرى بالنسبة إليهم، فقد كان بتجاوبه مع ذلك الشعب الثائر أصدق تعبيراً من جميع الشعراء، وقد عبّر في قصائده الرائعة عن الألم الذي يحزّ في نفسه، وعن الوطنية التي آمن بها إيماناً صادقا، ولذلك فإن الشبيبة العربية صارت تتناقل أشعاره"¹.

ومن التصويرات التي خلدت صفحات البطولة، ما تركه شاعر مجهول حول ثورة المقراني والحداد التي جرت وقائعها خلال سنتي 1870-1871م.

يا التاريخ تكلم عاود القصيدة ... بما جرى بين الرومي وشعبنا تعاود
خصال ذوك السادات تعيدها عليّا ... من عمل شي ياك أنتايا عليه شاهد
من خدم لوطنو يبقى شانو خالد

خذ نعطيك اخبار ذا الرعية ... مسطرة متمومة تاريخها مقيد
اثناء الحرب السبعين تنافروا الخزية ... الالمان تقوى والرومي تنكد
قال هاتوا عريان الجاه والحمية ... قامت الكفرة في شبابنا تجند
اتفقت جميع العربان في خفية ... عولت على الرومي من البلاد تطرد
من خدم لوطنو يبقى شانو خالد²

وفي باب معالجة الأوضاع المزرية المترتبة عن سياسة الاحتلال وقوانينه التعسفية، سجّل العديد من الشعراء تعاطيهم مع هذه المسألة، فهذا محمد بن عبيدة السجاري الذي عاش في أواخر القرن التاسع عشر، ينظم قصيدة رسم في بعض أبياتها ما عاناه المجتمع الجزائري من نكد ومرارة العيش فكتب:

نضت في زمان أهل الحكم الجاير ... كثرت البدائع وسريق المانة

¹ - مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007، ص 88.

² - جلول يلس و أمقران الحفناوي، المرجع السابق، ص 70.

ذا العباد تلتطف بها يا قادر ... تحصد الصيَّب والدنيا جيعانة

زَلَّ زهوها ولَّات غير مقاصر ... والصدور تكرب بالغيض املانة

من تسال عن حالو كي داير ... تجبروا قلبو مدقوق بزانة¹

وفي قصيدة يجهل تاريخها، يصور الشاعر عبد القادر بن أحمد المجاجي القوانين الجائرة التي سنها الاحتلال، ومشاعر الأسى والحسرة التي سيطرت على قلوب الناس:

جانا ذاك اليوم مرسول القايد ... بيرية قال جات من عند الفسيان

كي قراها بقات الأمة تتوحد ... تتلطف وتقول استر يا رحمان

قالوا جات اليوم قوانين جدد ... حكم شرع جديد ما راته الاعيان

اللي يحب العيش لفرانسا يسجد ... واللي يقول علاش يدوه لكيان

ما بقى لا خليل لا شرح مقيد ... لا طلبية تفقي بآيات القرآن

المسلم مسكين ما طاق يعاند ... وارواح تشوف ما طرى في هذا الزمان

فزعت الناس كل واحد وين شرد ... وعمر سوق الفساد من كثر الطغيان²

لقد ظلَّ حب الوطن والاعتزاز بالانتماء إلى الأرض، والتطلع إلى تحريرها ورفع رايتها، والتضرع إلى الله لمد العون والنصرة لتحقيق هذه الغاية من سمات أعمال الكثير من الشعراء، ففي قصيدة "أنا خديم رجال البيضاء" لمحمد بلخير³ نقرأ:

أنا طلبت ربي والطالب ما يخاب ... بجاه حرمة اللوح وكروسيه

¹ - عبد الحميد حاجيات، "مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال الشعر الملحون"، ضمن كتاب أعمال الملتقى الوطني حول: مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، المرجع السابق، ص 60.

² - جلول يلس و أمقران الحفناوي، المرجع السابق، ص 100-102.

³ - الشاعر محمد بلخير 1822 - 1904، أصيل منطقة الوادي المالح قرب العامرية بولاية عين تموشنت حاليا تشرب الشعر والفروسية منذ الصغر، كَوْن ثقافة عالية دينية وأدبية وتاريخية بعصامية، أظهر مقاومة شرسية ضد الاستعمار الفرنسي في إقليم الغرب الجزائري، تعرض لمطاردة كبيرة بسبب نشاطه المناوئ للاحتلال بالسيف والقلم، حكم عليه بالسجن وأبعد إلى جزيرة كالفي عام 1884م، حيث قضى عقدا من الزمن، عاد بعدها إلى الجزائر وواصل تعاطي الشعر المقاوم. للمزيد ينظر: جلول دواجي عبد القادر، "الشعر الشعبي الجزائري: قراءة تأثيلية في المفهوم والتطور وأشهر الأعلام"، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 43 البحرين، خريف 2018، ص 59-61.

تذهب النصارى يمشوا من ذا التراب ... وتوقف العلام اللي تزهو بيه

ألي يدير خمسة ممنوع من الحساب ... إلى مشى تركهم لا حاجه بيه

يبدأ بالشهادة مفتاح كل باب ... ويقوم الصلاة والمال يزكيه¹

وفي سياق تفاعله واندھاشه من السياسة الاستعمارية القائمة على البطش والسيطرة انبرى بقلمه وسيفه تحت لواء ثورة أولاد سيدي الشيخ التي تفجرت عام 1864م، حيث انخرط فيها وهو في سن الأربعين، فكان مقاتلا شجاعا وشاعرا فحلا، تركت كلماته وأبياته بالغ التأثير على الفرنسيين ومن عاضدهم من الخونة، وهو ما جعله مطلوبا من دوائر الاستعمار، التي تمكنت بعد جهود كبيرة ومطاردات لسنوات من القبض عليه، والحكم عليه بعشر سنوات سجن مع نفيه إلى جزيرة كورسيكا سنة 1884م.²

كانت القصائد التي عرض فيها محمد بلخير جانبا من وصف المعارك من نمط الشعر التحريضي، فتلقى الأبيات على المسامع شريطا استرداديا يجعل المقاومة كأنها ماثلة للعيان، مثلما يصور ما وقع في معركة عين الترك غربي وهران، حينما أغار الثوار على معسكر للجيش الفرنسي المنغمس في احتفالية بذكرى الاحتلال فكتب:

هجلنا علجات في مارية ... من هم اقباطينها تتراعد

خلينا عساتهم مخلية ... وامطامر قفرة البوم يغرد

حكيناهم كيف جك القلية ... ذاك اليوم كلينيهم متزاهد

اديننا ليبال على الدولية ... بيجو ضروك واش راه يجرد³

وفي ذات الاتجاه نظم الحاج خالد بن أحمد الملقب بالمنداسي الصغير قصيدة مشهورة في أواخر القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين، ومما ورد فيها:

لو صبت القدرة نظير بغير جناح ... ونهدي وطن الجافلين بلا جفلة

¹ - مريم مرايحية و عبد اللطيف حنيء " نزعة المقاومة في الشعر الشعبي الجزائري: الشاعر محمد بلخير أنموذجا "، مجلة المصطلح، المجلد 1، العدد 18، مخبر تحليلية إحصائية في العلوم الإنسانية، جامعة تلمسان، 2018، ص 84.

² - نور الدين بن قدور، المرجع السابق، ص 95-97.

³ - علي شاحطو، " قراءة في قصائد المقاومة: شعر محمد بلخير أنموذجا"، مجلة أبحاث، المجلد 05، العدد 05، جامعة زيان عاشور الجلفة، ديسمبر 2017، ص 61.

ما تدركهم قط في الدنيا الافراح ... ما فيهم خصلة ولا جود بنفلة

ما تنفع حتى حزارة في الجياح ... واش تنال إذا تلقم الدفلى.¹

وفي موضع آخر، يطلق صرخة قوية مزلزلة لاستنفار الطاقات للدفاع عن الوطن:

نبغي نار العز تحرق عظامي ... ويدين النعرة علي تتشببط

نبغي نصفع صاحب الغزر الدامي ... يهدى سيفي بين عينيه مشارط

نبغي نهدر وين ينبت كلامي ... وما نرضاش حديث من في يغلط

صدر العارف ما يكون إلا حامي ... و على صبرو كثرة الهم مسلط

إذا كان الهول خلفي ويمامي ... الطير الحر إذا حصل ما يتخبط.²

لم يهمل الشعراء والقوالون الوقوف على تطورات الأوضاع وتبدل أحوال الناس تحت سلطة المستعمر الغاشم، سواء أكان عسكرياً أم مدنياً، وهنا يصور الشاعر قفاف محمد بن الدولة تدهور معيشة الناس من سكان الصحراء الجزائرية، عقب التغيرات التي أفرزت إحلال المعمرين وتكليفهم بالتسيير الإداري محل السلطة العسكرية، بعد عام 1871م، فكتب محللاً ورأسماً المشهد العام في قصيد طويل، نقتبس منه بعضاً من الأبيات المعبرة عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية والمعنويات.

يا عرافة وقتنا راه تبدل ... ودهشنا بعد ما نقص عنا وطوال

ما متناش قبيل في الغاشي الأول ... وكبرنا وتبدلت عنا الاحوال

كان العبد على جيبه ما يغفل ... ويرد الدم عليه لا من عاد يسال

في ذا الدولة ما بقى حد يسول ... وتطفر في الي ما بقى له دلال.³

يعتقد أحد الباحثين الذين اهتموا بالشعر الشعبي في منطقة القبائل وتحولاته بعد انتفاضة 1871م وما ترتب عنها من تغيرات مست حياة المجتمع المحلي في كافة أبعادها، أن هذا النمط من التعبير

¹ - عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص ص 63-64.

² - المرجع نفسه، ص 65.

³ - جلول يلس و أمقران الحفناوي، المرجع السابق، ص 79.

قد أصابته قطيعة حادة على المستويين الموضوعي والأسلوبي بعد القضاء على ثورة المقراني والحداد، فقد ظهر إحساس عميق بالقلق والاضطراب لم يكن معروفا من قبل في الشعر القبائلي حيث نظر إلى المستجدات ومنها سياسة الاستعمار القمعية والوحشية، والقوانين الزجرية المصاحبة لها على أنها نهاية العالم، لاسيما وأنها تزامنت مع الاعتقاد السائد، بأن نهاية القرن الرابع عشر بالتقويم الهجري تعني خراب العالم،¹ ومن النماذج التي خلدت اسمها في تاريخ الشعر الشعبي بالمنطقة سي محند أو محند.²

وعلى ارتباط بساحات المعارك وبطولات المواجهة، وإلى جانب المعالجات التي غاصت في تتبع الآثار المدمرة للسياسة الكولونيالية على مقومات المجتمع المادية والمعنوية، كان لافتا أيضا اهتمام الشعراء الشعبيين بما تعرضت له عائلات الأشراف، كما فعل عدّة التحليلي بشأن ما وقع لأشراف منطقة غريس، حيث تحولت المسألة للتباكي على المجد الماضي، والتحسر على ضياع المدن وضعف الدين، وتدخل الفرنسيين في جوانب حياة المسلمين الخاصة، مما أفرز انقلابا في التركيبة الاجتماعية وفي سلم القيم، فصار الوضع في مقام يتقدم الشريف، وامتاز النحاس على الذهب، برأي الشيخ ابن عثمان، معتبرا ذلك من عجائب الزمان.³

يعد التجنيس⁴ بالجنسية الفرنسية من المسائل التي عالجها شعراء الملحنون في قصائدهم حيث اعتبروها خروجاً عن الدين الإسلامي، وأطلقوا على المتجنسين لقب المطورنين أي المرتدين ورثى الشعراء حالة الجزائر في العهد الفرنسي، وتأسفوا لتأثير المستعمر على الحياة الاجتماعية، ومن هؤلاء الشاعر قدور بن خليفة، الذي يعتقد أنه من جند الأمير عبد القادر، ورغم أميته، فقد تمتع بموهبة شعرية جعلت شعره يلقي رواجاً بين أعوام 1867 و 1910، وهو ما أكد عليه الكاتب جوزيف ديارمي، الذي أشار إلى قوة شعره، وأنه عثر على نسخة من قصائده في البليدة مطلع القرن العشرين.⁵

• ¹ - Abdelhak Lahlou, 1871 dans la poésie orale kabyle, revue études française, vol 57, N 01, 2021, pp 14-15.

² - سي محند أو محند (1845 – 1906)، أصيل قرية أشرعوين بمنطقة تيزي راشد بولاية تيزي، اسمه الحقيقي محند حمادوش حارب الاستعمار الفرنسي بشتى الوسائل، وأثناء انتفاضة 1871م، قامت السلطات الفرنسية باعتقاله وتعذيبه، ثم قامت باغتيال والده، ونفي أفراد من عائلته وأقربائه إلى كاليونيا الجديدة، غير أن الرجل ظل يدعو إلى التحرر من خلال أشعاره، وقد قام الكاتبان مولود فرعون ومولود معمري بترجمات لأشعاره، فالأول خصّ جزءاً منها بترجمة عنوانها Les Poèmes de Si Mohand، صدر عام 1960م، في حين جمع الثاني آثاره المنقولة في ديوان شعري وسمه Les Isefra de Si Mohand، وظهر سنة 1969م ينظر: رشيدة سعدوني، الموقع الإلكتروني السابق.

³ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 311.

⁴ - من القضايا الشائكة والتي أثار ردود فعل وطنية غاضبة ومعارضة لاسيما من الطبقات المحافظة وقادة الإصلاح، ما طرحته الإدارة الاستعمارية طبقاً لقانون سيناتوس كونسيلت لعام 1865م، حول منح الجزائريين الجنسية الفرنسية مقابل شروط لا عقلانية، في مقدمتها التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية، والخضوع لمقتضيات القانون المدني الفرنسي، وهي الإجراءات التي قبلتها أقلية من بين أولئك الذين عرفوا بالجزائريين المتأوربين، حيث رضيت بالتجنس، غير أن عددها ظل محدوداً جداً حيث تشير التقديرات إلى أن عدد طلبات الاستفادة لم يزد عن 2207 خلال الفترة الممتدة من 1865 إلى غاية 1916م.

⁵ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 313.

لم ينس الشعراء الشعبيون أن يولوا اهتماما لقضية الهجرة والإبعاد عن الوطن، وتأثيرات ذلك على الذهنيات والنفسيات، وهم في ذلك، يريدون تأكيد ارتباط المهاجر أو المهجر بوطنه، "فهو يرفض أية محاولة للفصل أو التجزئة، ويحاول أن ينظر باستمرار إلى الوطن الواحد، يشترك في الهموم والمسؤولية، كما يشترك في المصير والتبعية".¹

ومما لاشك فيه، أن الشعر الملحون أقدم أضحي جسرا للباحثين عن الانعتاق، وكما عبّر أحدهم " فإن الشعب لم يجد متنفسا لمكنوناته إلا القصيدة الشعبية، تسير بها الركبان، وتتجمع حول رواها الحلقات، يتغنى بها المدّاح في كل شعب من شعاب الأرض الجريحة، ليضعها ضمادا على شغاف كل قلب مكلوم".²

الشعر الشعبي والسلطة الاستعمارية: بين القمع السياسي والاهتمام الثقافي.

يذهب المؤرخ أبي القاسم سعد الله إلى أن الشعر الشعبي قد حظي بعناية العلماء والباحثين الفرنسيين وحاربه الإدارة الاستعمارية، فالعلماء اهتموا به منذ بدايات الاحتلال لأنه في نظرهم يعبر عن حقيقة الروح الجزائرية المقاومة، والسلطة حاربت المدّاحين أو القوالين، وراقبت نشاطهم، لأنهم كانوا نقلة هذا اللون الأدبي ومروجيه، وأخذ بعض الضباط المستعربين يحللون نصوص الشعر الشعبي الصوفي لغموضه عندهم، ولاحتوائه على رموز وتلميحات تاريخية وسياسية معادية للفرنسيين، فكانت العناية به خلال القرن التاسع عشر لأغراض سياسية في أغلب الأحوال.³

ومن الذين أعطوا عناية كبيرة للموروث الشعبي الباحث الفرنسي جوزيف ديبارمي⁴ الذي قام بتحقيقات ميدانية في منطقة متيجة مع من وصفهم بالفلاحين العلماء، من رواة القصص الشعبيين والمدّاحين،⁵ وقد ترجم قصصا وأشعارا كثيرة حصّل عليها من هؤلاء الذين كانوا يتصلون بالأوربيين

¹ - محمد المنقاري، شعر المقاومة الملحون في منطقة الغرب الجزائري: دراسة فنية تحليلية، مذكرة ماجستير في الأدب العربي تخصص أدب شعبي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2004-2005، ص 59.

² - عبد القادر خليفي، " الشعر الشعبي البطولي ودوره في وحدة المجتمع الجزائري "، ضمن كتاب أعمال الملتقى الوطني حول: مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، المرجع السابق، ص 125.

³ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 307.

⁴ - جوزيف ديبارمي Joseph Desparmet (1863-1942)، أصيل مدينة بوردو بالجنوب الفرنسي حصل بجامعة ليون على شهادة الليسانس في الآداب عام 1884م، التحق بالجزائر ضمن البعثة التعليمية الفرنسية سنة 1891م، حيث عين في تلمسان وهناك بدأ احتكاكه واهتمامه الجاد باللغة العربية والثقافة الإسلامية، وقد توج ذلك بنيل دبلوم في اللغة العربية عام 1900، طاف بعديد المدن الجزائرية، منها سكيكدة والمدية والبليدة ومستغانم، واستقر بالعاصمة، حيث صار أستاذا للغة العربية والعادات الإسلامية بالمدرسة العليا للأدب، يوصف بأنه من رواد الاثنوغرافيا المغاربية في مطلع القرن العشرين، وأنه صاحب نزعة إنسانية رغم انتمائه للإدارة الاستعمارية.

⁵ - kamel Chachoua, Joseph Desparmet (1863-1942) et la résistance symbolique dans l'Algérie coloniale, Site : Archive ouverte HAL/ <https://hal.science/hal-04354057> > document, consulté le 24/10/2025.

في الجهة، وتميز بحسن قراءته لأفكار الشعراء حد المبالغة أحيانا، فكان يستخرج منها المعاني المعلنة والمستترة، ويربط ذلك بالواقع والوقائع¹، وكان يرى أن الشعر الشعبي يؤدي وظيفة نبيلة لخصها بقوله: "تضميد الجراح، وشحذ الكبرياء الوطني، وتبرير الهزيمة بل وتحويلها إلى مجد للمهزومين"².

إن اندحار المقاومات الشعبية الواحدة تلو الأخرى، وفشلها في وقف التمدد الاستعماري في أرجاء البلاد، أدى بالشعراء إلى تقوية شكواهم من الزمان والظلم المسلط وشيوع حالة الفقر والاستنجد بالله وبالرسول وبالأولياء الصالحين وبالسلطان العثماني، وكان البحث عن منقذ من تلك الحال من أهم الصفات النفسية التي كان يغذي بها الشاعر المستمعين إليه، أو الرواة عنه.³

خاتمة.

لقد وقفنا في نهاية هذه الإطلالة التاريخية حول حضور الشعر الشعبي في ميدان مقاومة الاحتلال الفرنسي وتوسعاته، وسياساته القائمة على تدمير الإنسان الجزائري، واستباحة موارده وتخريب عناصر هويته على استخلاص جملة من النقاط على النحو الآتي:

- أن الشعر الشعبي قد مثل سجلا حقيقيا للذاكرة الجماعية للجزائريين عبر مختلف ربوع الوطن.
- تمكن من إلقاء أضواء كاشفة على الممارسات الاستدمارية التعسفية التي استهدفت الجزائريين من عمليات نفي قسري ومصادرة وأشكال ضريبية وفنون إجرامية، كما أبرز بصدق ردود الفعل الوطنية في مواجهة ذلك.
- أظهر تجانس أحاسيس الجزائريين في بيئاتهم الحضرية والريفية.
- مما لا ريب فيه أن تأثيره على المشهد كانت واضحة وأصبح مصدر قلق للإدارة الكولونيالية التي اجتهدت في التصدي للشعراء والمداحين بمحاولات الاستمالة أو القهر والنفي والسجن.
- دفع بالكثير من الباحثين والمستشرقين إلى القيام بعدد المحاولات لجمعه من أفواه الفئات الشعبية وترجمته بكافة طبوعه العربية والقبائلية والتارقية واعتباره سلاحا فكريا وتعبويا لا يقل عن رفع السيف وحمل البندقية.

¹ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 308.

² - kamel Chachoua, Op-Cit (Site internet).

³ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 339.

وبكلمة موجزة، فقد شكّل الشعر الشعبي الجزائري خلال فترة الاحتلال الفرنسي 1830 – 1954م ظاهرة ثقافية وتاريخية بارزة، جمع بين وظيفة الفن والتأريخ، وبين التعبير الجمالي والموقف السياسي ومن خلاله حافظ الجزائريون على هويتهم، وصانوا ذاكرتهم، ورسموا قيم النضال والمقاومة، ليكون بحق وثيقة حيّة، تروي تاريخ أمة قاومت بالكلمة، كما قاومت بالسلاح.

قائمة المراجع.

- 1- محمد البشير الإبراهيمي، التراث الشعبي والشعر الملحون في الجزائر، تحقيق عثمان سعدي، ط1 شركة دار الأمة، الجزائر، 2010.
- 2 - نصيرة ريلي، "الشعر الشعبي الجزائري النشأة والمصطلح"، مجلة أبوليوس، المجلد 09، العدد 02 كلية الآداب واللغات، جامعة سوق أهراس، جويلية 2022.
- 3 - نور الدين بن قدور، "النضال والمقاومة في الشعر الشعبي الجزائري: الشاعر محمد بلخير أنموذجا"، مجلة إنسانيات معاصرة، المجلد 01، العدد 02، المركز الجامعي صالحى أحمد، النعامة، سبتمبر 2022.
- 4 - رشيدة سعدوني، "أشعار سي محند أو محند: الشاعر الجوّال"، جريدة دنيا الوطن الالكترونية 2014/03/25، متاح على الموقع: <https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2014/03/25/324486.html>
- 5 - تسعديت قاسم و غانية فيلاي، الاستشراف الفرنسي والشعر الشعبي الجزائري: ديوان سونك أنموذجا، مذكرة ماستر في الدراسات الأدبية، تخصص أدب عالمي ومقارن، قسم اللغة العربية وآدابها جامعة مولود معمري، تيزي وزو الجزائر، 2018-2019.
- 6 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 8 1830-1954، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
- 7 - المجلس الأعلى للغة العربية، مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2006.
- 8 - جلول يلس و أمقران الحفناوي، المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، طبعة خاصة، وزارة الثقافة الجزائر، 2007.

- 9 - الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1990.
- 10 - مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر 2007.
- 11 - جلول دواجي عبد القادر، " الشعر الشعبي الجزائري: قراءة تأثيلية في المفهوم والتطور وأشهر الأعلام"، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 43، البحرين، خريف 2018.
- 12 - مريم مرايحية و عبد اللطيف حّي، " نزعة المقاومة في الشعر الشعبي الجزائري: الشاعر محمد بلخير أنموذجا"، مجلة المصطلح، المجلد1، العدد 18، مخبر تحليلية إحصائية في العلوم الإنسانية جامعة تلمسان، 2018.
- 13 - علي شاحطو، " قراءة في قصائد المقاومة: شعر محمد بلخير أنموذجا"، مجلة أبحاث، المجلد 05، العدد 05، جامعة زيان عاشور الجلفة، ديسمبر 2017.
- 14 - محمد المنقاري، شعر المقاومة الملحون في منطقة الغرب الجزائري: دراسة فنية تحليلية، مذكرة ماجستير في الأدب العربي، تخصص أدب شعبي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2004-2005.
- 15 - Abdelhak Lahlou, 1871 dans la poésie orale kabyle, revue études française, vol 57, N 01, 2021.
- 16 - kamel Chachoua, Joseph Désarmet (1863-1942) et la résistance symbolique dans l'Algérie coloniale, Site : Archive ouverte HAL/ <https://hal.science/hal-04354057> › document.